جماليات الانزياح في الخطاب القرآني من خلال أسلوب النّداء

محمّدبن صالح مشري

قسنطينة - الجزائر

شكّلت المجالات الدّلاليّة للخطاب في القرآن الكريم تنوّعا تعبيريّا، أحال على قيم فنيّة اكتنفتها الكثير من الأسرار البلاغيّة التي أضحت السّمة الغالبة للنصّ الشّريف غير أنّ وحدة التوجّه في الخطاب القرآني الذي تحدّه ثنائيّة الأمر والنّهي يوحي لأوّل وهلة بنمطيّة صورة التّركيب ومعانيه البلاغيّة.

نصّ الإشكاليّة:

كيف يمكننا تحديد القيم الفنيّة للخطاب القرآني من خلال أنموذج أسلوب النّداء وما هي المعاني الإضافيّة التي تفرزها قراءة مثل هذه الأساليب ذات النمطيّة المتكرّرة، أقصد التّجانس في التّركيب ؟

توطئة

نمطيّة النّظم القرآني كثيراً ما تختزن ضمن السّياقات المختلفة التي ترد فيها فعّالية الوحدات الدّالة على المعاني وروافدها إذا ما هي انفصلت بوصفها مفردات أحاديّة لها خصوصيّة تميّزها عن أيّ مفردة أخرى تنتمي إلى نصّ سوى النصّ القرآني، أو أنّ هذه المفردات اتّحدت فيما بينها لتشكّل التّركيب النّحوي الذي بمجموعه يتحقّق مفهوم الآية أو يرتسم للذّهن حدود المعنى الأوّلي أو المعنى التّأسيسي، الذي يمدّ وشائجه لما بعده فينشأ بذلك المعنى الإضافي الذي لو تخلّت عنه الآية الواحدة لانصرم حبل ودّها مع نظيراتها من الآيات اللّواتي يعملن على إتمام البناء الكلّي المتمثّل في الصّورة القرآنيّة.

فالصّورة القرآنيّة بوصفها نصّاً مستقلاً لا تكاد تكتفي بذاتها إلاّ بعدما تجتمع لها بقيّة معاني الصّور الأخرى التي تناثرت فيها مكمّلات المعنى الذي ذكر أوّلا، لهذا اجتهد المفسّرون قديماً وحديثاً في جمع شتات معاني الموضوع الواحد، فكلّما اقترب الواحد منهم من المبتغى الذي يصبو إليه وجد نفسه في مفترق آخر يقوده إلى معانٍ جديدة يودّ لو أنّه تيسّر له فهم أبعاد هذه المعاني وما تقود إليه حتّى يؤسّس لنظريّة غير تلك التي عزم على بلورتها أوّلا ونافح على صحّة أدلّته في رجحانها

عـن غيرها التي تناولت القضيّة نفسها وفي الموضوع ذاته والآية عينها.

فمـا كان مـن ذلـك إلاّ أن بـرزت للمجتهدين قضية الإعجـاز التـي لم تصـرف العلماء قديمـاً ولا حديثاً عن الاستقـراء الدّقيـق للغـة النصّ الشّريـف واستخـراج مكنونـاتـه بتوظيـف جـمـيـع أدوات البـحـث والسّـبر والاستقصـاء، فعملوا علـى إعادة قـراءة الشّعر العربي بوصفـه ديوانهم الأوّل ومجمـع تراثهم الفكري، حتّى إذا اجتمـع لهم النّصيـب الأوفر من المعـاني ومسالك الفكر أفضى بهم كلّ ذلك إلى تجديد العزم نحو قراءات جديدة للقـرآن، ممّـا أدّى إلى هذا الزّخم الكبـير من التّفاسير ذات الاتّجاهـات المتباينـة في طريقـة التّفسـير وطبيعته الأمر الـذي أبان عن وجوه كثيرة ومواضيـع متعدّدة لكلّ مجتهد حظّ في اكتشافها واستخراج أسرارها كلّ بحسب اختصاصه، وهذا ما بيّن فعليّاً وجوه الإعجاز بغضّ النّظر عمّا ألفناه في كتب القدماء عند تعرّضهم لهذه المسألة.

فآليّـات القـراءة الحديثـة والمعاصـرة وجـدت في القـرآن ضالّتهـا كذلـك رغـم حداثـة أنمـاط التّأويـل والتّوجيه المتعلّقة بالنصّ المغلق أو المفتوح، فهذه الطّرائق المستحدثـة استطاعـت هي الأخرى أن تجلّـي الكثير من أوجه الإعجاز ومظاهره في النصّ الشّريف، فالعبرة إذن في قضيّـة الإعجاز ليست بما قاله قائل في زمن دون زمن وإنّما العبرة في مسألة الإعجاز هي تجدّد النّص القرآني رغم ثباته، وذلك بمرونة مفرداته وقوّة اختزالها لشحنة المعاني التـي كلّما وجدت من يستنبطها و يستبعثها كانت له نعم المجيب لمبتغى المراد، لهذا قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَعْـلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [سورة آل عمران: ٧]، فمفهوم آية كهذه ينفـي احتـكار الاجتهاد على فئة دون غيرهـا لأنّ المعاني الحقيقيّة لهـذا النّصّ الشّريف لا يعلمهـا إلاّ الباري عزّ وجـلّ، ممّـا يتيح حتماً فرصة البحـث من جديـد كلّما توافـرت دواعٍ لذلـك وفـق القواعد المثلى التـي قُرّرت في بـاب الاجتهاد، وظهرت لمن هو في زمانه دوافع ومعطيات أخرى لم تكن في السّالف من الزّمن.

وهـذا ما حاولت أن أستجليه من خلال هذه الدّراسة التـي ضمنّتها بعض النّماذج مـن القرآن الكريم، تكشف عـن وجوه الإعجاز في الخطاب الذي تكرّر بصور مختلفة لكـن ضمن أسلـوب واحد وهو أسلوب النّـداء الذي حوى عـدّة مجـالات دلاليّـة صنّفـت فحـوى الخطـاب حسب المقـام ونوعيّة المخاطب، والأمر الملفـت في هذا النّوع من الخطابـات في القرآن الكـريم أنّه كثيراً مـا تكرّر بصيغ تركيبيّـة تكاد تكون نفسهـا، إلاّ أنّها سرعـان ما تنعطف نحو معنـى غير ذلك الذي جـاء أوّلا، فخطـاب المؤمنين في القـرآن كاد أن يجاوز التّسعين آيـة مبتدئاً كلّه بعبارة «يـا أيّها الذين آمنوا» وكأنّ هذا التّركيب هو المركز الذي تتفرّع عنده المعاني الأخـرى التي تشكّل فحوى الخطاب، ممّا عكس نوعـاً من المخالفة التّعبيريّة في النّمط الواحد وهـذه المخالفـة هـي التـي أطلـق عليهـا المحدثـون من الأسلوبيين مصطلح «الانزياح».

وهذا مـا أردت تبيان قيمـه الجماليّة من خلال هذه الدّراسة وقد حصـرت تطبيق هذه النّظريّة في التّراكيب المتشابهـة التي تكرّرت أكثر من مـرّة، غير أنّ كلّ تركيب انفرد بميزة تتمّم معـاني التّركيب القبلي وتضيف معنى آخـر، وهو ما اعتبرتـه أنّه شكل من أشـكال الانزياح في الأسلوب القـرآني، حيث رصدت لذلك ثلاثة نماذج ضمّ كلّ نمـوذج منها أكثر مـن ثماني آيات تتكـوّن من صورة

نمطيّة واحدة تتكرّر لتفتح مجالاً أوسع في الخطاب الذي ظهر أكثر ما ظهر في آيات النّداء بتركيبه المتضمّن لعناصر ثلاثة هي الحرف والمنادى ونصّ الرّسالة الموجّه للمخاطَب.

أوّلا: علاقة المجاز بالانزياح

تكاد تكون المصطلحات الحديثة والمعاصرة جميعها امتداداً في المفهوم لما قد قرّره القدماء من العلماء، فالباحث في أصول المعارف يجد أنّها غالباً ما تشترك في الخلفيّة الفكريّة نفسها وأنّ منطلقها واحد، فما نلحظه من علاقة واضحة بين البلاغة والأسلوبيّة لدليل على ما هو كائن في بقيّة علوم اللّغة والأدب الأخرى لذلك نشأت دراسات تبحث في تأصيل المسائل العلميّة انطلاقاً من مصادرها الأولى، التي حوت ولو بعض الإرهاصات التي افتقدت في معظمها إلى التّقعيد وهذه طبيعة كلّ علم في بدايته وإن كان المجاز في الدّرس البلاغي قد اكتمل نضجه وبانت جميع ملامحه النّظريّة وصور تطبيقاته.

لكن ثمّة من الأسلوبيّين المحدثين من استطاع أن يمدّ أواصر العلاقة بين المجاز بوصفه خلاف الحقيقة والانزياح؛ الذي يعني في أبسط مفاهيمه مخالفة الموجود وفق معايير أسلوبيّة محدّدة فليست كلّ مخالفة تعدّ انزياحاً، لهذا أقرّ الأسلوبيّون فيما نظّروا بالانزياح الصّفري ولم يقولوا بفكرة الانزياح السّلبي الذي بنيت لغة النصّ فيه على المخالفة من أجل المخالفة لا غير دونما ملامح فنيّة تدلّ على قيم تعبيريّة جديدة تضمن للنصّ رواجه، وحتّى نوضّح بعض ملامح تلك العلاقة التي تربط بين المجاز والانزياح لابدّ من العودة إلى المصادر التي وضّحت دلالة مفهوم كلّ منهما ومجالات استعماله.

أ- المجاز:

فالمجاز عند «عبد القاهر الجرجاني» (ت: ٤٧١هـ) هو:« كلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثّاني والأوّل، فهي مجاز، وإن شئت قلت: كلّ كلمة جُزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظة بين ما تجوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها في المجاز.»[1] لأنّ الحقيقة عنده هي: «كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وإن شئت قلت: في مواضعة وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي (حقيقة)»[2]، فالمجاز إذن جاوز في حدّه معنى معلوماً بالضّرورة متّفق عليه هو ما تعارف عليه المجتمع في أصل الوضع الأوّل فكان من ذلك أن كانت الحقيقة معلماً ثابتاً يبيّن درجة انحراف المعنى المجازي عن المعنى العادي الذي ينقدح في الذّهن بمجرّد التلفّظ بلفظ جرى الكلام به بين المتخاطبين.

وقد ذكر «السكّاكي» توسعة لهذا المعنى أنّ المجاز هو: «الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتّحقيق، استعمالاً في الغير بالنّسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع، وقولي: بالتّحقيق احتراز أن لا تخرج الاستعارة، التي هي من باب المجاز، ونظراً إلى دعوى استعمالها فيما هي موضوعة له، وقولي: استعمالاً في الغير بالنّسبة إلى نوع حقيقتها، احتراز عمّا اتّفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له، لا بالنسبة إلى نوع حقيقتها، كما إذا استعمل صاحب اللّغة لفظ: «الغائط» مجازاً فيما يفضل عن الإنسان من منهضم متناولاته، أو كما إذا استعار صاحب الحقيقة الشّرعيّة: «الصلاة» للدعاء، أو صاحب العرف«الدابة»:

للحمار، والمراد بنوع حقيقتها اللّغوية، إن كانت إيّاها، أو الشرعيّة أو العرفيّة، أية كانت، وقولي: مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع، احتراز عن الكناية فإنّ الكناية كما ستعرف، تستعمل فيراد بها المكنّى عنه،فتقع مستعملة في غير ما هي موضوعة له،مع أنّا لا نسمّيها مجازاً لعرائها عن هذا القيد»[٣].

فهذا النصّ يضمّ تعريفاً أكثر شموليّة لأنّ «السكّاكي» احترز ممّا وقع فيه «الجرجاني» من تعميم في المفهوم وهو ما أوجب اعتراض «العلوي» صاحب (الطّراز)[٤]، غير أنّ الذي يهمّنا في هذين المفهومين المتقاربين هو أنّ صورة المجاز هو استعمال لفظة في غير معناها المعجمي (الحقيقي أو الأصلي)[٥] لوجود علاقة بين المعنى اللّغوي الأصلي لهذه اللّفظة والمعنى المجازي (الجديد) النّاتج عن ذلك الاستعمال (بشرط وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي للّفظة).

والمجاز اللّغوي يشمل الاستعارة بأنواعها (الاستعارة التّصريحيّة والاستعارة المكنيّة والتّمثيليّة) كما يشمل المجاز المرسل والكناية، والمجاز المرسل هو استخدام لفظ في غير معناه الأصلي مع وجود علاقة (غير علاقة مشابهة) بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد، أمّا الاستعارة فهي استخدام اللّفظ في معناه الأصلي مع وجود شبه بين المعنى(الأصل) لهذا اللّفظ ومعناه المجازي الجديد في استخدامه الجديد، ووظيفة المجاز في تصوير بعض علماء البلاغة العربيّة أنّه يضفي جمالاً على التّعبير ويزيد من مقدرته التأثيريّة من خلال الإيجاز أو المبالغة أو تصوير المعاني المجردّة، أو إضفاء طبيعة حيّة على الجماد، أو إضفاء الطّابع الإنساني[٦].

غير أنّ ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ الصّلة بين الدّال والمدلول في المجاز ليست اعتباطيّة كما هي في الكلام الجاري على الحقيقة، بل لابدّ من أن تكون هناك مناسبة بين اللّفظ وبين ما نقل إليه، وهذا ما سمّاه «عبد القاهر» بـ (الملاحظة)، ثمّ سمّيت فيما بعد بـ (العلاقة)، أي أنّ البلاغيّين اشترطوا أن يكون بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي صلة أوصلات تمكّن من أن يربط بين كليهما، وإلاّ فإنّ اللّغة تقف عن أداء وظيفتها[٧].

فما الدّاعي إلى اللّجوء إلى المجاز والعدول عن الحقيقة التي تمثّل صورة واقع متداول بين أفراد مجتمع ما ؟، وهذا السّؤال أجاب عنه «ابن جنّي» (ت: ٣٩٢هـ): «وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتّساع، والتّوكيد، والتّشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتّة.»[٨] وعليه فالمجاز متطلّب من متطلّبات مستخدمي اللّغة قصد تجلية غوامض يعسر فهمها لولا التّمثيل والتّشبيه علماً أنّ المجاز في عرف اللّغة هو حقيقة ثانية، لأنّ مستويات المجاز لا تنفصل تماماً عن الواقع اللّغوي الحقيقي.

وممّا يؤكّد هذه العلاقة قول «ابن الأثير» (ت:٦٣٧هـ) «وأعجب ما في العبارة المجازية أنّها تنقل السّامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتّى إنّها ليسمُح بها البخيل، ويشجُع بها الجبان، ويحكم بها الطّائش المتسرّع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتّى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه بذل مال، أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو السّحر الحلال، المستغني عن إلقاء العصا والحبال.»[٩] فما هذه حقيقته وأثره في كلام المتكلّم لابدّ أن يكون جزءاً مهمّاً من متمّمات عمليّة التّخاطب المقصود بها التّفاهم بين الأفراد، الذين يقحمون المجاز في كلامهم حتّى

يزيدوه رونقاً وجمالاً يسحر لبّ السّامع فلا يحدث حينئذ إلاّ الرّضا بين الطّرفين: المتكلّم والسّامع.

وشأن المجاز شأن غيره من ألوان التّعبير التي إذا ما تكرّر ورودها مجّها الذّوق وصارت مبتذلة إذا ما حاكاها متكلّم آخر قصد الإبداع، وهذا ما حاول الأدباء قديماً تحصيله من خلال ابتعادهم عن المجازات التي كثر دورانها في كلامهم، فيعدّ الواحد منهم مجدّداً وحائزاً على قصب السّبق إذا هو ضمّن قصيدته أو خطبته أنواعاً من صور المجاز لم يسبقه إليها غيره ويكون بذلك المرجع فيما أورده، وهذا ما يجعل من المجاز مستويات متفاوتة من حيث قيمها الفنيّة شرط التخلّص من الغريب الموحش، فذلك يفضي عند النقّاد إلى التكلّف، قال «العزّ ابن عبد السلام»(ت: ٦٦٠هـ): «المجاز استعمال لفظ الحقيقة فيما وضع دالاً عليه، لنسبة وعلاقة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، فلا يصحّ التجوّز إلاّ بنسبة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، وتلك النّسبة متنوّعة، فإذا قوي التعلّق بين محلي الحقيقة والمجاز، فهو المجاز الظّاهر الواضح، وإذا ضعف التعلّق بينهما إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظيره في المجاز، فهو مجاز التّعقيد، فلا يحمل عليه شيء من الكتاب والسنّة، ولا ينطق به فصيح وقد تقع علاقة بين الضّعيفة والقويّة، فمن العلماء من يتجوّز بها؛ لقوّتها بالنّسبة إلى العلاقة الضّعيفة، ومنهم من لا يتجوّز بها؛ لانحطاطها عن العلاقة القويّة»[١٠]، فمعيار القيمة الفنيّة لأيّ عمل إبداعي تتوقّف على نسبة توظيف الصّور المجازيّة التي تنقل العمل الإبداعي من مستواه العادي في اللّغة إلى مستوى أعلى يحقّق مفهوم الإبداع.

ب - الانزياح:

أمّا الانزياح فقد اختلف المحدثون من اللّسانيّين في تعريفه كما اختلف القدماء في حدّ المجاز وإن كان الأوائل والأواخر منهم قد أجمعوا على القيم الفنّية لكلّ من المجاز والانزياح يقول الأستاذ «عبد الملك مرتاض» مُعرِّفاً الانزياح بقوله:« أنه هو الذي يزيح الدّلالة عن موضعها الذي وضعت فيه أو له في أصل المعاجم، ويمنحها خصوصيّة دلاليّة جديدة هي التي يحملها المبدع في لغته، وذلك بتوتير الأسلوب، وتفجير معاني اللّغة، وتخصيب نسوجها»[١١]، فالانزياح إذن هو مخالفة المستوى العادي من التّعابير الشّائعة حتّى تحدث المفاضلة بين أسلوب وآخر، فالأسلوب لا يحقّق قيمة العمل الإبداعي إلاّ إذا خالف المألوف من الصّياغات والسّياقات التي كثيراً ما ترد في الخطاب العادي.

مصطلح الانزياح أدلّ ما يكون على معناه اللّغوي الذي يعني الزّوال والتّباعد عن الموضع الأصيل[١٢] ولمّا كان الانزياح في أصل وضعه اللّغوي يوحي بمعان جمعتها مفردات تكاد تمثّل مرادفات لهذا المصطلح وهي: الانحراف، العدول، الخرق، المفارقة، الانتهاك وغيرها[١٣] من المصطلحات التي جعلها الأسلوبيّون قريبة المدلول ممّا فسّروا به مصطلح الانزياح، وإن رجّح بعضهم توظيف أحد هذه المصطلحات دون غيرها زعماً منهم أنّها الأحقّ بالدّلالة على التّغاير والابتعاد عن المطّرد من العبارات الشّائعة، ممّا يوقع القارئ في حيرة من أمره لما يرى من تعدّد في المصطلح دون رسم حدود للفروق التي تفرد كلّ مصطلح من المصطلحات السّالفة الذّكر.

وكما كان للمجاز مستويات دنيا وأخرى عليا كذلك كان الشّأن بالنّسبة للانزياح يقول «أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر»: «عندما تكون دراسة العوامل الأسلوبيّة دراسة تميل إلى وقائع الانزياح، فإنّه لمن الضّروري أن

نميّز بين الانزياحات النّوعيّة (غير القاعديّة) والتي تعدّ نادرة نسبيّاً باستثناء الشّعر الحديث، وبين الانزياحات الكميّة (المرتبطة بالتّكرار النّسبي الذي يكون معه بعض السّمات الكلاميّة مختارة أو متجنّبة) والتي هي أكثر عدداً من غير شك، ويعدّ الوقوف على الانزياحات الكميّة أكثر صعوبة من الانزياحات النّوعيّة، وذلك لأنّ تعريف التّكرار العادي للمرجع يطرح العديد من المشكلات. وأخيراً فإنّه لمن الملائم أن نميّز بين الانزياحات التي تحيل إلى السّياق الخارج نصّي وإلى الانزياحات التي لا تبلغ هذا المقام إلاّ أنّها تحيل إلى سياق لساني متعالٍ»[١٤].

فلو تمّت عمليّة المقارنة الصّحيحة بين هذا النصّ ونصّ «العز بن عبد السلام» لوجدنا أنّ الأوّل متضمّن في الثّاني مع تغييرات طفيفة في الألفاظ والعبارات بحكم التّرجمة، وإلاّ فالمفهوم واحد بالنّسبة للمجاز والانزياح في النصّين ويظهر ذلك جليّاً في نوعي الانزياح الاستبدالي والتّركيبي، فالاستبدالي مثلاً عماده الأوّل الاستعارة التي تمثّل أساس تشكّله، والمقصود بالاستعارة هنا تلك التي تقوم على إعارة كلمة واحدة تستعمل بمعنى مشابه لمعناها الأصيل ومختلف عنه، وهذا ما أكّده «كوهن» في كتابه (بنية اللّغة الشعرية) حين قال: «المنبع الأساسي لكلّ شعر هو مجاز المجازات هو الاستعارة»[١٥].

إنّ ما تصوّره الدّراسات الأسلوبيّة الحديثة على أنّ الانزياح ظاهرة جديدة، فهي ليست في جوهرها إلاّ ما قامت عليه البلاغة العربيّة من وسائل لغويّة أسلوبيّة في الخروج عن الأنماط والدّلالات الوضعيّة في الألفاظ والتّراكيب، فالكثير من مباحث علم البيان، والمجاز، والاستعارة، والكناية، تدور حول استعمال الألفاظ والعبارات في غير ما وضعت له، أي بانزياحات وعدول، وما ذلك إلاّ مظاهر تمثّل انزياح الكلام عن نسقه المألوف، فنظريّة الانزياح باعتبارها إجراءً لغويّاً تجد بعداً مهمّا في التّراث البلاغي العربي حتّى خلال الحديث عن المجاز والعدول والتوسّع[١٦].

ثانيا: انزياحات الأسلوب القرآني من خلال خصائصه:

تعدّدت الأساليب القرآنيّة وتنوّعت بين أسلوب القصّ، والوعظ، والوعد، والوعيد، والأمر، والنّهي فيما يخصّ الأحكام الفقهيّة، وكلّ ذلك جار على نسق متجانس يجمعه الخطاب العامّ في القرآن الكريم الذي استهلّ جميع تلك الأساليب بعبارات تفتح باب الحوار بينه عزّ وجلّ وبين عباده سواء بضمير الغيبة أو الحضور، وهو ما يحقّق أوّل وجوه الإعجاز الذي يكشف عن جميع قيم الانزياح ودرجاته سواء تعلّق الأمر باللّفظ أو المعنى أو التّركيب أو طبيعة الموضوع في حدّ ذاته أو كيفيّة الجمع بين المواضيع المختلفة ضمن سياق واحد لتشكيل مشهد من مشاهد الحياة الدّنيا أو الآخرة[١٧]، ولعلّ المميّزات التي خصّ بها «محمد عبد الله دراز» القرآن الكريم خير ما يلخّص مجالات الانزياح في النصّ الشّريف، وهي كالآتي:

أ - القصد في اللّفظ والوفاء بحقّ المعنى:

هذه خاصّة لم تعرف لغير القرآن، فإنّ أبلغ البلغاء من النّاس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه قليل، ومعناه وافٍ وهو إن اتّفق له في الموضع الواحد والموضعين، فلا يتّفق له في جملة كلام، شعراً ونثراً وما هو بحاصل إلاّ على كلام نسبي غير مطّرد، بحسب ما أوتي من إلهام وتوفيق. فأبلغ البلغاء إذا حفل باللّفظ أضرّ بالمعنى، وإذا حفل بالمعنى أضرّ باللّفظ. نهايتان من حاول أن يجمع

بينهما وقف منهما موقف الزّوج بين ضرّتين، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما.

خذ من القرآن مقداراً من الكلام، وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجباً ثمّ انظر أي الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتّعديل أو التّبديل دون أن تخلّ بمعناه ؟

ولو نزعت منه أي القرآن لفظة ثمّ أدرت لسان العرب لتضع موضعها لفظة أحسن منها لم تجد.

ب - خطاب العامّة وخطاب الخاصّة:

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم النّاس، فمن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه، ومن يخاطب العامّة باللّمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون.

فلا بدّ من التّفرقة في الخطاب بين المقامين، ولا يوجد في النّاس من يحسن هذا كائناً من كان، لا تجد ذلك على أتمّه إلاّ في القرآن الكريم، هو متعة العامّة ونزهة الخاصّة، ميسّر لكلّ من أراد.

ج - إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

في النّفس قوّتان، قوّة تفكير وقوّة وجدان، وحاجة كلّ واحدة منهما غير حاجة الأخرى، ولا تجد بليغاً يفي لك بحاجة القوتين في عبارة واحدة، ولكنّك تجد ذلك في القرآن الحكيم، في أجمل صورة وأوضح بيان.

د - البيان والإجمال:

وهذه عجيبة أخرى لا تجدها في غير القرآن، لأنّ النّاس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتّسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو اللّغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطّرفان في كلام واحد.

أمّا القرآن فإنّه يستثمر برفق أقلّ ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني يستوي في ذلك مواضع إجماله، التي يسمّيها النّاس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمّونها الإطناب، ولذلك نسمّيه إيجازاً كلّه لأنّنا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف[١٨].

ومنافحة «الباقلاني»(ت: ٤٠٣هـ) عن فكرة تفرّد القرآن بشكل جديد هو ما هو عليه، دفع به إلى محاولة حصر القوالب التي جاء عليها كلام العرب، وقد مهّد لذلك بقوله:« الذي يشتمل عليه بديع نظم القرآن وجوه، منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظمه على تصرّف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من تركيب خطابهم وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد»[١٩]، ثمّ تتبّع أشكال كلام العرب وقوالبهم وانتهت به محاولته إلى أنّ الكلام المنظوم يأتي على نحو من الأنحاء الآتية:

النّحو الأوّل: أعاريض الشّعر على اختلاف أنواعه.

النّحو الثّاني: الكلام الموزون غير المقفى.

النّحو الثالث: الكلام المعدّل المسجع.

النحو الرابع: الكلام المعدل الموزون غير المسجع.

النّحو الخامس: الكلام الذي يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وتركيب لطيف وإن لم يكن معتدلاً في وزنه[٢٠].

فدروب الكلام على هذا النّحو قلّما تخرج عند العرب عن المجاز أو الانزياح المزدوج بياناً وبديعاً، فما تصفيف الألفاظ قصد نسج عبارات مسجوعة إلاّ نمطاً من أنماط الخروج عن مألوف الكلام، وهذا ما تقابله الفاصلة القرآنيّة بجرسها رغم كونها تتكرّر بأشكال متعدّدة ومتباعدة، فلئن جاء القرآن الكريم بلغة عربيّة مبينة

فإنّه لم يأت بها موافقة تمام الموافقة لما عليه العرب، بل كانت له طريقة جديدة في استعمال اللّغة استعمالاً يخرج بها كثيراً عمّا هي عندهم، فهي كما يقول مالك بن نبيّ «طريقة فجائيّة غريبة»[٢١] تقتضيها طبيعة الرّسالة الإسلامية، وفي هذا يقول «ابن نبيّ» مرّة أخرى:« لقد كان حتماً على القرآن إذا ما أراد أن يدخل في اللّغة العربيّة فكرته الدّينيّة، ومفاهيمه التّوحيديّة أن يتجاوز الحدود التّقليديّة للأدب الجاهلي. والحقّ أنّه قد أحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنيّة في التّعبير: فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظّمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة لكي يصل العقليّة الجاهليّة بتيّار التّوحيد.»[٢٢]، ويلفت انتباهنا في قول «ابن نبي» بيانه أنّ انزياح القرآن كان في الأداة اللّغويّة الفنيّة، وكذا في الفكرة الجديدة، وبهذا حدث الانقلاب الهائل في الأدب العربي الذي كان الشّعر عماده، فإذا جاز اعتبار الشّعر في عمومه انزياحاً عن لغة الحديث فإنّ القرآن الكريم انزياح على انزياح[٢٣].

ثالثا: القيم الفنّية للانزياح من خلال أسلوب النّداء في القرآن الكريم

يعدّ أسلوب النّداء من الأساليب التي تكرّر ورودها في القرآن الكريم بشكل ملفت للانتباه حتّى أنّه لا تكاد تمرّ آية من آيات الذّكر الحكيم إلاّ و تضمّن نصّها تركيباً من تراكيب النّداء المختلفة، هذه الكثرة النّوعيّة شكّلت مجالات دلاليّة انطلاقاً من طبيعة المخاطب وفحوى الخطاب، ونقصد بفحوى الخطاب هاهنا هو مضمون الرّسالة التي يتلقّاها أيّ مخاطب في القرآن، ومركّب النّداء عادة ما يتكوّن من حرف للنّداء يليه المنادى وهو المخاطب ثمّ تابع المنادى الذي يمكن أن يكون وصفاً مفرداً أو جملة إنشائيّة أو خبريّة، فهذا التّعدّد هو الذي أدّى إلى ظهور أنماط كثيرة من التّراكيب في النّداء وهو الذي أحال على معان إضافيّة عملت على ما يعرف بتكثيف المعنى، يقول «حازم القرطاجني» (ت: ٦٨٤هـ) «وما يتركّب من جهة التعدّد والاتحاد في جميع ذلك، واقتران كلّ واحد من الأفعال وما تستند إليه، وما تطلبه بالآخر على حال موافقة له في التعدّد والاتّحاد أو مخالفة، تنقسم ثمانية أقسام:

١ - متّحد الفاعل، متّحد المفعول، متعدّد الفعل.

٢ - أو متعدّد الفاعل والمفعول

٣ - أو متّحد الفعل والفاعل، متعدّد المفعول.

٤ - أو متّحد الفعل، متعدّد الفاعل والمفعول.

٥ - أو متّحد المفعول، متّحد الفعل، متعدّد الفاعل.

٦ - أو متّحد المفعول، متعدّد الفاعل والفعل.

٧ - أو متّحد الجميع.

٨- أو متعدّد الجميع»[٢٤].

فأمثال هذه الصّور النّمطيّة من التّراكيب النّحويّة هي التي غالباً ما رافقت مركّب النّداء ووليت المنادى عاملة على تحقيق الطّرف الثّالث من التّركيب الذي يوجّه المعنى ويتحكّم في مساره، وهو ما حقّق مفهوم الانزياح في المجال الدّلالي الذي عادة ما يرتبط بجملة تتكرّر في الغالب ويكون الفارق بين مجموع هذه الجمل المتكرّرة هو التّركيب الذي يأتي بعدها، علماً أنّ الجمل المتكرّرة الألفاظ يمكن ألاّ تدلّ على المخاطب نفسه عكس ما يبدو في ظاهر النصّ، وهذه بعض النّماذج التي تمثّل مجالات دلاليّة في أسلوب واحد هو النّداء، اصطفيتها لأنّها تمثّل أكثر ما تكرّر وروده في القرآن.

أ - نداء المؤمنين:

تكرّر ورود نداء المؤمنين في القرآن تسعاً وثمانين مرّة[٢٥] قسّم «الفيروز آبادي» (ت:٨١٧هـ) مجموعها إلى ثلاث مجموعات ما كان فيها أمر صرف، وما كان فيها نهي مطلق، وما اجتمع فيها الأمر والنّهي[٢٦]، وكلّ مجموعة تندرج تحتها تراكيب جمل مختلفة تميّز مضمون كلّ نداء عن الآخر الأمر الذي يفصل بين وحدات الجمل المتباينة، فيعكس بذلك قيم الانزياح في المجال الواحد وهو نداء المؤمنين، الذي جاءت أنماطه الجمليّة على النّحو الآتي:

١. ما أريد من خلاله الأمر:

الأمر بالتّقوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة: ٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [سورة الحشر: ١٨].

الملاحظ من هذه الآيات تكرّر عبارة (يا أيّها الذين آمنوا) التي استهلّت بحرف نداء وليها مجهولين هما لفظ (أيّها) والاسم الموصول (الذين) فلفظ (أيّها) أقحم للتوصّل به إلى نداء ما فيه (أل)[٢٧]، وهذا النّوع من التّركيب لم يرد مثيله في كلام العرب، وهو ما يمثّل أوّل درجات الانزياح، غير أنّ هذا التّركيب أتبع بفعل أمر يوصي بالتّقوى التي عادة ما تكون من صفات المؤمن إذ كيف يستقيم الإيمان دون تقوى، وهو ما يفسّره المنعطف الثّالث في هذا التّركيب في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ لأنّ هذا النّوع من المعاملات كثيراً ما يستشري في المجتمعات مؤمنها وكافرها، غير أنّ ما يميّز هذه الآيات عن بعضها هو طبيعة الجمل التي وليت فعل الأمر (اتّقوا) ومفعوله حيث اختلفت مضامين كلّ جملة بحسب السّياق الذي وردت فيه.

الأمر بالطّاعة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٣].

لا يختلف التّركيب الأوّل في هذه الآيات عن الآيات السّابقة إلاّ أنّ فعل الأمر تغيّر ودلّ على وجوب الطّاعة وكأنّ المؤمنين على خلاف ذلك كما يبيّن ظاهر النّص، لكنّه شكل من أشكال الحثّ على الطّاعة لأنّ عاقبتها الامتثال لأوامر الله ورسوله، وأنماط الجملة بعد التّركيب الأوّل وفعل الأمر اختلفت لتشكّل المعنى الإضافي الذي

جاءت من أجله كلّ آية من هذه الآيات[٢٨].

الأمر بالذّكر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب/ ٤١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: ١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [سورة الأحزاب/ ٩].

فالاختلاف في متغيّرات هذه الآيات هو ما ولي فعل الأمر حيث جاء مفعولاً به تارة ومفعولاً مطلقاً تارة أخرى قصد تأكيد مفهوم الذّكر والدّليل وصفه بالكثرة لتوسيع هذا المعنى.

الأمر بأداء الواجب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سورة الصف/ ١٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [سورة النساء/ ١٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [سورة المائدة/ ٨].

تغيّرت نوعيّة فعل الأمر في هذه الآيات حيث استهلّ فحوى الخطاب بفعل أمر ناقص دلّ على وجوب النّصرة لله ولرسوله والقيام بالواجبات التي فرضها عزّ وجلّ[٢٩].

٢ - ما أريد من خلاله النّهي:

النّهي عن الابتعاد عن المخالفين لشريعة الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [سورة آل عمران/ ١١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [سورة المائدة/ ٥١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [سورة التوبة/ ٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [سورة الممتحنة/ ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ [سورة المائدة/ ٥٧].

وكلّ هذه الآيات بدأ قسمها الثّاني بنهي صدّر بفعل اشترك بين الآيات وهو (اتّخذ) ثمّ حدث أن تفرّعت كلّ آية بمضمونها حسب المنهيّ عنه ودرجة اجتهاده في صرف المؤمن عن إتّباع ما أوجب الله[٣٠].

النّهي عن أكل الأموال المحرّمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [سورة آل عمران/ ١٣٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [سورة النساء/ ٢٩].

اشتركت الآيتان في النّهي عن أكل المال الحرام وانفصلت في نوع المال المحرّم، حيث أتبع فعل (الأكل) في الآية الأولى بمفعول حرّ من اللّواحق وأتبع الفعل نفسه في الآية الثّانية بمفعول مقترن بلواحق تحقّق معنى الإضافة، وكلّما زادت ألفاظ الآية زاد المعنى الإضافي الدّال على الانزياح بين نوعي التّركيب.

النّهي عن دخول البيوت دون إذن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [سورة النور/ ٢٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ [سورة الأحزاب/ ٥٣].

حرمات البيوت محفوظة في الشّريعة الإسلامية لذا وجب أن يوجّه مثل هذا الخطاب للمؤمنين فهم أحرى بأن ينتهوا عن ولوج بيوت الغير دون إذن أصحابها وإن كان التّخصيص في الآيتين واضحاً بين بيت النّبيّ ﷺ وبيت غيره، فالنّهي في الآية الثّانية يؤكّد عدم انتهاك حرمة بيت النّبي ﷺ ولو كان داخله إلاّ إذا اقتضت الضّرورة ذلك.

النّهي عن التّشبّه بالكفّار:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ ﴾ [سورة آل عمران/ ١٥٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ [سورة الأحزاب/ ٦٩].

فكما ورد الأمر بالفعل النّاقص في النّمط الأوّل كذلك كان الشّأن بالنّسبة لهذا النّمط في هاتين الآيتين، وقد أتبع فعل النّهي بشبه جملة المشبّه به فيها هم الكفّار أو بني إسرائيل حيث اختزلهم لفظ اسم الموصول في الآيتين، وممّا بيّن «الزمخشري» (ت: ٥٣٨هـ) انزياحه في النّداء إذا وليه نهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[سورة الحجرات/ ١]، فهو يرى أنّ «حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المساميتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسمّيت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسّعا كما يسمّى الشّيء باسم غيره إذا جاوزه وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من فائدة جليلة ليست في الكلام العريان»[٣١]. ويقصد بلفظ (العريان) هنا هو ما جرى على ألسنة العوامّ وحتّى الفصحاء من العرب لأنّ تركيباً كهذا ندر وجوده في كلامهم، فلفظ (العريان) عنده مرادف للانزياح أو الانحراف عند الأسلوبيّين.

٣. ما احتمل الأمر والنّهي:

التزام الحدود الشّرعيّة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [سورة البقرة/١٧٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة/١٨٣].

مثل هذه الآيات الأصل فيها الأمر بالتزام الطّاعة لأنّ التزامها وتطبيق حدودها يقود إلى الانتهاء عن مضارّ لو لم ينهى عنها عادت بالسّلب على الفرد والمجتمع، فجاءت الصّيغة التّركيبيّة مبنيّة للمجهول لأنّ الذي أوجب وفرض معلوم بالضّرورة وإن كان ظاهر السّياق يدلّ على الإخبار لا الإنشاء.

الجزاء من جنس العمل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ ﴾ [سورة الأحزاب/ ٤٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾[سورة المجادلة/ ١٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [سورة الممتحنة/ ١٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [سورة البقرة/ ٢٨٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [سورة النساء/ ٩٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [سورة المائدة/ ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [سورة الأنفال/ ١٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال/ ٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [سورة المجادلة/ ٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة المجادلة/ ١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [سورة الجمعة/ ٩].

جملة الشّرط كثيراً ما تكرّرت في القرآن الكريم منفصلة أو متّصلة بأسلوب مثل أسلوب النداء قصد تبيان طرفي العدل الإلهي الذي يقابله الجزاء بحسب طبيعة عمل المجازى، وذلك ما توضّحه ثنائيّة فعل الشّرط وجوابه الذي غالباً ما يضمر لأنّ الإضمار يفيد العموم ويقود إلى عدم تضييق المعنى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران/ ١٠٠].

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرقَانًا وَ يُكَفِّر عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد/ ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [سورة محمد/ ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [سورة الحجرات/ ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران/ ١٤٩].

وهذه صور أخرى من أشكال التّركيب في الشّرط القرآني الذي يجري على نسق واحد في بدايته ثمّ تحدّد المنهيّات أو الواجبات حسب الموجب لعقد الشّرط كما هو واضح من خلال هذه الآية، فطاعة بعض أهل الكتاب من المشركين حتماً سيقود إلى الضّلال والابتعاد عن السّبيل القويم، والملاحظ كذلك في هذه الآيات تعدّد أنواع الجمل التي وردت بعد فعل الشّرط.

وقيمة الانزياح في مجموع الآيات السّابقة تكمن في الجمع بين طوائف أهل الإيمان في جملة (الذين آمنوا) فيدخل ضمنهم أهل الإسلام والنّصارى واليهود بشرط تحقيق العبوديّة والتّصديق بما نزّل على الرّسل فالخطاب في حقّ المؤمنين من الطّوائف المختلفة في زمن النّبي ﷺ وقبله[٣٢]، وإلاّ كيف نفسّر نداءه سبحانه وتعالى في مجال آخر النّاس[٣٣] برمّتهم وأهل الكتاب بخاصّتهم.

ب - نداء أهل الكتاب:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ [سورة آل عمران/ ٦٥].

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ [سورة آل عمران/ ٧٠].

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران/ ٧١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران/ ٩٨].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ ﴾ [سورة آل عمران/٩٩].

تنوّعت توابع المنادى بين الإفراد والتّركيب هذا الأخير الذي يأتي تارة ضمن الأسلوب الخبري وتارة ضمن الأسلوب الإنشائي فيكاد هذان الأسلوبان أن يتناوبا في معرض نصّ الخطاب الموجّه للمنادى، فهذه الآيات مثلاً تكشف عن طبيعة الحوار الذي يعدّ فيه أهل الكتاب الطّرف الرّئيس بحكم سلسلة الأسئلة الموجّهة لهم في صيغة استفهام إنكاري، افتتح فيه التّركيب بشبه جملة قوامها (لام) الجرّ و(ما) اسم استفهام مبني على السّكون الظّاهر على الألف المحذوفة في محلّ جرّ بحرف الجرّ وحذفت (الألف) لاتّصال (ما) الاستفهاميّة بحرف الجرّ والجارّ والمجرور متعلّق بالأفعال التي تليها[٣٤].

والملاحظ أنّ مجموع هذه التّساؤلات كلّها قد وردت ضمن سورة واحدة واستقلّ سؤال واحد في هذه الطّائفة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [سورة المائدة/ ٥٩]. فأهل الكتاب هم اليهود والنّصارى جمعهم هذا التّركيب الإضافي لأنّه سبحانه وتعالى أفرد طائفة منهم في قوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ ﴾ الأحزاب/ ١٣]. واختلف فيمن قصد بهذا التّخصيص أهم سكّان المدينة أو من سمعوا نداء «أوس ابن قيظي» وهم المنافقون وقيل قبيلة (بني حارثة)[٣٥].

نهي أهل الكتاب :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ [سورة النساء/ ١٧١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [سورة المائدة/ ٧٧].

وهذا النّمط ورد مرّتين يكاد فيهما التّركيب أن يتطابق فيهما لولا وجود جملة العطف في الآية الأولى، رغم أنّها أي الجملة المعطوفة تحمل المعنى نفسه في الاستثناء الثّاني، هذا المعنى الذي صاغه سبحانه وتعالى في تبيان الحقّ الذي لابدّ أن يتّبعه أهل الكتاب وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [سورة المائدة/ ٦٨].

الجملة المحققة

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [سورة المائدة/١٥].

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ ﴾ [سورة المائدة/ ١٩].

الخطاب في الآيتين لليهود والنّصارى الذين حرّفوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ فريق يدّعي الحقّ لنفسه وأنّه على الملّة السّمحاء خاصّة بعدما طال الأمد بين آخر نبي وهو عيسى عليه السلام والنّبي ﷺ ؛ لأنّه هو المقصود لقوله (قد جاءكم رسول) لينسخ مللكم ويوحّد بينكم وبين بقيّة البشريّة التي بعث إليها جمعاء.

ج - نداء الآباء في القرآن:

ورد نداء الآباء في القرآن أربع عشرة[٣٦] مرّة انفصلت منها عبارة (يا أبت) ثماني مرّات شكّل منها حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه قمّة الانزياح في أساليب الخطاب.

﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة مريم/ ٤٢].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [سورة مريم/ ٤٣].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [سورة مريم/ ٤٤].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [سورة مريم/ ٤٥].

ذكر الشّيخ «الطاهر بن عاشور» أنّ إبراهيم قد علم في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصّغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصّة الآباء مع أبنائهم، فتوجّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوّة إيماء إلى أنّه مخلص له النّصيحة، وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ منبّهاً على خطئه عندما يتأمّل في عمله، حيث ابتدأ بالحجّة الرّاجعة إلى الحسّ إذ قال له: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ فتلك حجّة محسوسة ثمّ اتبعها بقوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ ثمّ انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النّفور عن تلقي الإرشاد من ابنه كما في الآية الثّانية فلمّا قضى حقّ ذلك انتقل إلى تنبيهه على أنّ ما هو فيه أثر من وساوس الشّيطان كما في الآية الثالثة، ثمّ ألقى إليه حجّة لائقة بالمتصلّبين في الضّلال كما في الآية الرّابعة، أي أنّ الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعّدك على أن تفارق عبادتها.

وفي النّداء بقوله: (يا أبت) أربع مرّات تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنّها مقام إطناب[٣٧].

قال «الزمخشري»: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورّطاً فيه.. كيف رتّب الكلام معه في أحسن اتّساق وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللّطف والرّفق واللّين والأدب الجميل والخلق الحسن»[٣٨].

وقوله (يا أبت) تلطّف واستدعاء بالنّسب[٣٩]، حتّى يذكّره بعلاقة الأبوّة والبنوّة معاً وأنّه لا يريد له إلاّ الخير شأنه في ذلك شأن ذوي الأرحام، وهذا دأب الأنبياء في مخاطبتهم لآبائهم أيّاً كان المقام الذي يجمعهم كما هي الحال في مثل هذه النّماذج :

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [سورة يوسف/ ١٠٠].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [سورة يوسف/ ٤].

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [سورة القصص/ ٢٦].

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الصافات/ ١٠٢].

وليست هذه الشّواهد وحدها التي كشفت عن قيم الانزياح في أسلوب التّكرار في النّداء بل هناك خمسين[٤٠] مجالاً دلاليّاً في أسلوب النّداء، حوى عناصر مختلفة لتراكيب متنوعة قلّماً تشابه تركيب مع آخر ممّا يدلّ على نشدان اتّساع المعنى في كلّ ذلك، وإلاّ ما الغرض من تكرار أسلوب كأسلوب النّداء أربعمئة مرّة ؟، والأسباب الموجبة لتكرار النّمط التّركيبي هي:

تعدّد معنى الأداة ذات الصّدارة في الجملة.

تعدّد معنى الصّيغة.

تعدّد احتمالات العلاقة النحويّة كأن يصلح المعطوف أن يعطف على هذا اللّفظ أو ذاك و كاحتمال تعلّق الظّرف أو الجار والمجرور.

تعدّد احتمالات المعنى الوظيفي للكلمة المفردة.

تعدّد احتمالات الذّكر والحذف.

تعدّد احتمالات تمام الجملة أو افتقارها إلى ما بعدها.

تعدّد احتمالات المعنى المعجمي للكلمة المفردة.

احتمالات الدّلالة اللّفظيّة أو الفوقيّة[٤١].

فمظاهر الانزياح تبدو من خلال هذه الآيات المتشابهة التّراكيب سطحيّة لا بعد في قيمها التّعبيريّة لكنّ الوحدات المتبادلة المواقع تبرز إمكانيّة التّغاير الدّلالي وإن هي تماثلت ألفاظاً نمطيّة، ويمكن اكتشاف قيم انزياحيّة أعمق لو تتبّعنا المقامات البلاغيّة التي يخرج إليها النّداء كالتّعجب والنّدبة والاختصاص، والتمنّي، وهذه الرّوافد من المعاني تحيلنا على دراسة أخرى يمكن أن تتناول ازدواجيّة الانزياح في الخطاب القرآني من حيث المعنى النّحوي والبلاغي.

نتائج الدّراسة

مجموع نتائج هذه الدّراسة يمكن تلخيصها كمايلي:

١ - تاريخيّة المصطلح وتطوّر دلالته لا تعني بأيّ حال من الأحوال المغايرة في المدلول فسمات المعنى الأوّل تمتدّ جذورها عبر مراحل التّطوّر التي يمرّ بها المصطلح واستخداماته المختلفة، حيث تبقى على الأقلّ سمة واحدة تكون جامعة بين أصل الوضع ومنتهى التطوّر وما استقرّت عليه دلالة المصطلح في زمن ما.

٢ - يمثّل الانزياح بمختلف أطيافه المفرداتيّة صورة المجاز النّهائيّة بأنواعه وإنّ الأوّل منهما وهو المجاز كثيراً ما يتّسم بالإيغال في عمق المعنى نظراً لقوّة ألفاظ اللّغة في بداية ظهور المجاز، وقدرة أرباب البيان فيما سلف على التحكّم في نظم الكلام وسبكه لأنّه كان يمثّل صنعتهم وهمّهم الشّاغل، أمّا الانزياح فهو غالباً ما يلاحظ في نصوص أحسن ما يميّزها الرّمز الأسطوري بمعانيه التّاريخيّة لأنّ مستوى اللّغة في النّصوص المعاصرة يختلف حتماً عمّا مضى من المستويات التّعبيريّة الأولى، فقيم الانزياح في النصّ المعاصر يمكن حصرها في بعض عبارات النصّ على العكس تماماً ممّا نجده في النّصوص القديمة التي يمكن أن يتوشّح بالمجاز من أوّله إلى نهايته.

٣ - فكرة المجاز اللّغوي في البلاغة العربيّة تلخّصها صور المجاز الذي كان معيار المفاضلة بين النّصوص شأنه في ذلك شأن الانزياح في النّقد المعاصر.

٤ - القياس في مجال المجاز والانزياح قياس شكلي مع قرب الفارق فالمجاز الابتدائي إن صحّ التّعبير خالف أوّل ما خالف اللّغة الاجتماعيّة في الزّمن الأوّل، ثمّ تدرّجت قيمه قياساً على الصّورة المجازيّة الأولى، فما كان للمبدع أن يكون كذلك إلاّ إذا استحدث صوراً مجازيّة جديدة أو زاد شيئاً عليها في الكمّ مثلاً وما الصّور المجازيّة في اللّغة المعاصرة التي أطلق عليها مصطلح الانزياح إلاّ صورة من صور القياس الشّكلي وهو ما يجعل المجال مفتوحاً لا نهاية له مادام هناك مبدع شغله الشّاغل إنتاج النصّ الأدبي.

٥ - خصائص الأسلوب القرآني توضّح مقادير الانزياح بوصفها قيماً خلافيّة للغة العرب التي نسجت لغة القرآن من معجمها.

٦ - وجود المجاز في القرآن لا يعني بالضّرورة مخالفة الحقيقة التي توافق معيار صدق الواقع، لأنّ صور المجاز في هذا النصّ الشّريف كشفت عن تدرّج في مستويات التّعبير وقيمته الفنيّة، وهو ما يمثّل انزياحاً عن لغة العرب الأوائل الذين انزاحوا بلغتهم عن مستويات أخرى قبلهم جعلت منهم أمّة البيان قديماً وحديثاً.

٧ - أنماط التّكرار في أساليب القرآن يمكن عدّها مقارنة مع بعضها البعض مستويات في الانزياح؛ لأنّ التّطابق لو فهم من التّكرار أو اعتقد بأنّه توكيد لا غير لأدّى ذلك إلى نسف ظاهرة الالتفات في القرآن، ولانعدمت خصيصة جماليّة إعادة الصّورة التّركيبيّة ذات الشّكل الواحد والمضمون المختلف أو العكس.

٨ - التّشكيلة المتتابعة والمتكرّرة للنّداء هي التي تحيل الذّهن على مقاربات بين الجمل المتساوية لفظاً والمتغيّرة معنى، ممّا يؤكّد أنّ روح الانزياح لا يلغيها تجانس التّركيب وإنّما يغذّيها انسجامه وموقع وحداته المكوّنة له فهي تتبادل ولا تتنازل عن القيمة الدّلاليّة التي أكسبها السّياق إيّاها فلولا هذه الخاصيّة لصار أسلوب النّداء برمّته في القرآن ضرباً من التّكرار لا غير دون غاية ترتجى من ورائه، وهذا ما لا يمكن تصوّره مع الخطاب القرآني، لاسيما وأنّ صيغه مركّزة ومواضيعه مختزلة اختصاراً.

الهوامش

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني؛ اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى وميسّر عقاد ·- ط١ ·- بيروت، لبنان : مؤسسة الرسالة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٠.

(٣) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكّاكي؛ تحقيق عبد الحميد هنداوي·- ط١ ·- بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٤٦٨.

(٤) االطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى ابن علي العلوي اليمني؛ تحقيق عبد الحميد هنداوي ·- ط١ ·- صيدا، لبنان : المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٣٨ .

(٥) ينظر المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ·- إستانبول، تركيا: المكتبة الإسلامية، (د،ط)، (د،ت)، (مادة جاز)، ١٤٦.

(٦) اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود لعبد الوهاب المسيري ·-

ط١ ٠- القاهرة، مصر: دار الشروق، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص١٢.

(٧) الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي لأحمد محمد ويس ٠- دمشق، سوريا : اتّحاد الكتاب العرب، (د، ط)، (د،ت)، ص١١٥.

(٨) الخصائص لأبو الفتح عثمان ابن جنّي؛ تحقيق محمد علي النجار٠- بيروت، لبنان : المكتبة العلمية، (د، ط)، (د، ت)، ٤٤٢/٢.

(٩) المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٠- بيروت، لبنان : المكتبة العصرية، (د، ط)، ١٩٩٥م، ٧٩/١.

(١٠) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام؛ تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار الكتب العلميّة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٣٨.

(١١) التحليل السيميائي للخطاب الشعري لعبد الملك مرتاض ٠- دمشق، سوريا : إتحاد الكتاب العرب، (د،ط)،٢٠٠٥م، ص١٣.

(١٢) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، (مادة زاح)، ص٤٠٦.

(١٣) تكاد المصطلحات القريبة من الانزياح أن تفوق الأربعين مصطلحا، ينظر ما أورده عبد السلام المسدي في كتابه، الأسلوبيّة والأسلوب ٠- القاهرة، مصر: دار سعاد الصباح، (د،ط)، ١٩٩٣م، ص١٠٠.

(١٤) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة: منذر عياشي ٠- ط٢ ٠- بيروت، لبنان : المركز الثّقافي العربي، ٢٠٠٧م، ص٥٨٤.

(١٥) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية لأحمد محمد ويس ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : المؤسسة الجامعية للنشر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١١٢.

(١٦) في اللّغة (دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات البنية اللّغوية): أحمد شامية ٠- ط١ ٠- الجزائر : دار البلاغ، الجزائر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٣٠، ١٣٨.

(١٧) خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ٠- ط١ ٠- القاهرة، مصر: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ١٦٣/١.

(١٨) النّبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ٠- ط٣ ٠- بيروت، لبنان : دار القلم، ١٩٧٤، ص١٠٣.

(١٩) إعجاز القرآن للقاضي أبو بكر الباقلاني؛ تحقيق السيد صقر٠- القاهرة، مصر: دار المعارف، (د،ط)، (د،ت)، ص١٩١.

(٢٠) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن؛ دراسة تحليلية نقدية عبد الرؤوف مخلوف ٠- بيروت، لبنان : دار مكتبة الحياة، (د،ط)، ١٩٧٨، ص١٩١.

(٢١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي؛ ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم: عبد الله دراز ٠- ط٤ ٠- دمشق، سوريا : دار الفكر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٧٨.

(٢٢) المرجع نفسه، ص١٧٩.

(٢٣) الانزياح في التراث النقدي والبلاغي لأحمد محمد ويس، ٢٩.

(٢٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبو الحسن حازم القرطاجني؛ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ٠- تونس : دار الكتب الشرقية، (د،ط)، (د،ت)، ص٣٢.

(٢٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي٠- ط١ ٠- القاهرة، مصر: دار الحديث، ١٤١٨هـ/١٩٩٦م، (مادة آمن)، ص١٠١.

(٢٦) بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي؛ تحقيق عبد العليم الطحاوي٠- بيروت، لبنان : المكتبة العلمية، (د،ط)، (د،ت)، ٤٣٠/٥.

(٢٧) دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة٠- القاهرة، مصر: دار الحديث، (د،ط)، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ٢١٩/١٠.

(٢٨) نداء القرآن (يا أيها الذين آمنوا) لمنيب الطحّان ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا : دار سعد الدين، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١١٢.

(٢٩) نداء المؤمنين في القرآن الكريم لأحمد فتح الله جامي ٠- ط٤ ٠- حلب، سوريا : دار العرفان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٠٧.

(٣٠) نداء الله جلّ جلاله لعمر أحمد عمر ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا: دار المكتبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٣٣.

(٣١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل لجار الله الزمخشري؛ اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار المعرفة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٠٣١.

(٣٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري؛ ضبط وتعليق محمود شاكر ٠- بيروت، لبنان : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢/١٠٠.

(٣٣) أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان لمحمود بن حمزة الكرماني؛ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ٠- القاهرة، مصر : دار الفضيلة، (د،ط)، (د،ت)، ص٦٧.

(٣٤) بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز لبهجت عبد الواحد الشيخلي ٠- ط١ ٠- عمان، الأردن : مكتبة دنديس، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٢/٩٥.

(٣٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي؛ تحقيق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢١/٢١٣.

(٣٦) المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم لمحمد بسام رشدي الزين؛ إشراف محمد عدنان سالم ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا : دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ١٤.

(٣٧) التّحرير والتّنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٦/٤٤.

(٣٨) الكشّاف: الزمخشري، ٦٣٧.

(٣٩) البحر المحيط في التّفسير لأبي حيان الأندلسي؛ بعناية زهير جعيد ٠- بيروت، لبنان : دار الفكر، (د،ط)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٧/٢٦٨.

(٤٠) بصائر ذوي التّمييز: الفيروز آبادي، ٥/٤٢٥.

(٤١) البيان في روائع القرآن لتمام حسان، عالم الكتب، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٦٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني؛ اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى وميسّر عقاد ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : مؤسسة الرسالة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام؛ تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار الكتب العلميّة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- إعجاز القرآن للقاضي أبو بكر الباقلاني؛ تحقيق السيد صقر ٠- القاهرة، مصر : دار المعارف، (د، ط)، (د، ت).
- أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان لمحمود بن حمزة الكرماني؛ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ٠- القاهرة، مصر: دار الفضيلة، (د،ط)، (د،ت).
- الأسلوبيّة والأسلوب لعبد السلام المسدي ٠- القاهرة، مصر: دار

سعاد الصباح، (د، ط)، ١٩٩٣م.
- الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي لأحمد محمد ويس ٠- دمشق، سوريا : اتّحاد الكتاب العرب، (د،ط)، (د،ت).
- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية لأحمد محمد ويس ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : المؤسسة الجامعية للنشر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية لعبد الرؤوف مخلوف ٠- بيروت، لبنان : دار مكتبة الحياة، (د،ط)، (د. ت).
- البحر المحيط في التّفسير لأبي حيان الأندلسي؛ بعناية زهير جعيد٠- بيروت، لبنان : دار الفكر، (د،ط)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي؛ تحقيق عبد العليم الطحاوي ٠- بيروت، لبنان: المكتبة العلمية، (د،ط)، (د،ت).
- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز: بهجت عبد الواحد الشيخلي ٠- ط١ ٠- عمان، الأردن : مكتبة دنديس، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- البيان في روائع القرآن: تمام حسان ٠- ط٢ ٠- القاهرة، مصر: عالم الكتب، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- التّحرير والتّنوير: محمد الطاهر بن عاشور ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان: مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- التحليل السيميائي للخطاب الشعري لعبد الملك مرتاض ٠- دمشق، سوريا: إتحاد الكتاب العرب، (د،ط)،٢٠٠٥م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبو جعفر محمد بن جرير الطبري؛ ضبط وتعليق محمود شاكر ٠- بيروت، لبنان : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان ابن جنّي؛ تحقيق محمد علي النجار٠- بيروت، لبنان : المكتبة العلمية، (د، ط)، (د، ت).
- خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ٠- ط١ ٠- القاهرة، مصر: مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة ٠- القاهرة، مصر: دار الحديث، (د،ط)، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- روح المغاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي؛ تحقيق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن علي العلوي اليمني؛ تحقيق عبد الحميد هنداوي ٠- ط١ ٠- صيدا، لبنان : المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي؛ ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم: عبد الله دراز ٠- ط٤ ٠- دمشق، سوريا : دار الفكر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- في اللّغة (دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات البنية اللّغوية) لأحمد شامية ٠- ط١ ٠- الجزائر : دار البلاغ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان لأوزوالد ديكرو لجان ماري سشايفر؛ ترجمة منذر عياشي ٠- ط٢ ٠- بيروت، لبنان : المركز الثّقافي العربي، ٢٠٠٧م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل لجار الله الزمخشري؛ اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا ٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار المعرفة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود لعبد الوهاب المسيري ٠- ط١ ٠- القاهرة، مصر : دار الشروق، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٠- بيروت، لبنان : المكتبة العصرية، (د، ط)، ١٩٩٥م.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي٠- ط١ ٠- القاهرة، مصر: دار الحديث، ١٤١٨هـ/١٩٩٦م.
- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم لمحمد بسام رشدي الزين، إشراف: محمد عدنان سالم ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا : دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ٠- إستانبول، تركيا : المكتبة الإسلامية، (د، ط)، (د، ت).
- مفتاح العلوم لأبو يعقوب السكّاكي؛ تحقيق عبد الحميد هنداوي٠- ط١ ٠- بيروت، لبنان : دار الكتب العلميّة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني؛ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ٠- تونس : دار الكتب الشرقية، (د، ط)، (د، ت).
- النّبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ٠- ط٣ ٠- بيروت، لبنان : دار القلم، ١٩٧٤م.
- نداء القرآن (يا أيها الذين آمنوا) لمنيب الطحّان ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا : دار سعد الدين، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- نداء الله جلّ جلاله لعمر أحمد عمر ٠- ط١ ٠- دمشق، سوريا : دار المكتبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- نداء المؤمنين في القرآن الكريم لأحمد فتح الله جامي ٠- ط٤ ٠- حلب، سوريا : دار العرفان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.